

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

٦١٣	 الملذبون في الأرض (قصة)	طه حسين
٦٢٣	 تقرير ديوان الحاسية	محمود عزى
٦٢٩	 حيرة الترك بين الشرق والغرب	محمد رفعت
٦٤١	 ذاهب مع الريح	محمود تيمور
٦٥٣	روابط الطبيعة والتاريخ في وادي النيل	سليمان حزين
٦٦٤	 قبل السفر (قصيدة)	عبد الرحمن صدق
٦٦٥	 الأصول القرية للوجودية	روحيه أرناؤديز
٦٨١	 شعري الضائع (قصيدة)	محمد عبده عزام
٦٨٣	 أم العواجز (قصة)	يحيى حق
٦٩١	 ماذا أفدت من هذا العمر	سلامه موسى
٧٠٣	 خليل مطران	فؤاد صروف
٧٠٩	 عالم البيت في مسرحيات بلوتس	ريمون فرنسيس
٧١٨	 صورة الفنان (قصيدة)	هنرى القيم
٧٢٠	 بريطانيا التي غيرتها الحرب ولم تتغير	هنرى بيرلين

من هنا وهناك (كلارا عزى — بشر فارس)

شهرية الفن — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح — شهرية السينما
من وراء البحار — من كتب الشرق والغرب — ظهر حديثاً
في مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية

الكتاب المصري



مايو ١٩٤٧

جمادى الثانية ١٣٦٦

مجلد ٥ - عدد ٢

السنة الثانية

المعذبون في الأرض

لم تنزل من السماء ، كما تنزل الملائكة ، رحمة وروحاً على الأرض . ولم تخرج من النهر ، كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن في الزمان القديم من الجداول والأنهار ، ومن العيون والينابيع . ولم يحملها إلينا السحاب ، ولا أرسلها إلينا نجم من النجوم . وإنما نشأت في القرية ، وفي أسرة بائسة شقية من أسرها ، كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن وألوفهن في المدن والقرى دائماً . ولكنها امتازت من أترابها :

بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتحدد

ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمع الطلق المشرق النقي . فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتفرت فيه الأخاديد احتقاراً ، وفعل به البؤس والشقاء ، وشظف العيش الأفاعيل . وكان وجه أمها صورة رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة . وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المخرجة التي تدفع البائسين من العمل إلى مالا يحبون ، وترضيهم آخر الأسر عما يكرهون . كان هذا كله قد غشى وجهي هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة ، والغباء .

ولم تكن تمتاز بإشراق الوجه وثقائه لحسب ، وإنما كان إشراق وجهها وثقاؤه مظهرًا بصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد أسبغت على جسمها

كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع في تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنق بعمله ، فيخرج تمثاله آية في الروعة وفطنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتلئاً ، لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر في النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر في ظلمة الليل كأنه السهم ، وإشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالاً ونوراً . كان صوتها يحضر في النفس هذا الوقت القصير الذي يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذي يترقق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ، ملؤها الحياة والنشاط ، قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتحف الأوراق ، وتهف الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيقي وتأهبي ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر في النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلاً ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافي ، يلائم وجهها المشرق النقي ، وخلقها الرائع السوي ؛ فكان شخصها أشبه شيء بآية من آيات الموسيقى التي لا تلد السمع وحده ، وإنما تلد كل ما في الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ، ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدماة والقبج ، بهذه الآية التي استأثرت بأرق الحسن وأنقاء ؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس في التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكرًا عليهم تساؤلهم وإلحاحهم فيه : « توبل الليل في النهار ، وتوبل النهار في الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم ! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبج ، وهو يوبل الليل في النهار ، ويوبل النهار في الليل ! إنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن ينهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ، فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأُمها محبوبة لأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نَصَفًا . تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصاً هو هذا الذي يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً

واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح . فكنت تراها في آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك ، تهى العجين . وكنت تراها في أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصنّاع قطع العجين ، فتسويها في سرعة مذهشة على الشكل الذي ينبغي أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رقيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذي يجعلها سائغة في الأفواه والحلوق والبطون . وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضع الخفير ، وقد حملت أجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنينا وبناتها ، يقنعون بهذا الخبز في كثير من الأيام ، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشئ من طعام . فان لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شئ مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدي القصار من البصل والفجل ، وهذه الأعشاب التي لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلاً مقترراً عليه في الرزق ، قد ورث عن أبيه مهنة لا تغنى من جوع ، كان بناء متواضعاً لا يقيم الدور التي تتخذ من الحجر والأجر والطين ، وإنما يقيم البيوت والحجرات التي تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلازمة أو غير متلازمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد في الفضاء وترتفع في الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شئ من سعف النخل ، فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيمهم أيسر ما ينبغي أن يتقوا من عادات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت في كل يوم ولا في كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلاً

أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التي يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات . فلم يكن يد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً ، تعمل في دار من دور اليسار ، تقبل مع الصبح السفر فتفتق ما تملك من نشاط في خدمة أهل الدار ، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبيها فتفتق الليل فيه . وكانت راضية بهذه الحياة باسمه لها على شيء من حزن كان يستقر في قلبها ويتغلغل في ضميرها ، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال . كانت تفكر من غير شك في بؤس أبيها وإخوتها الصغار ، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكثيرة البائسة بلفظ أو لحظ أو حركة ، إنما كانت تحفي حزنها كما يخفي البخيل كنزه ، وربما نمت بهذا الحزن نعمة ضئيلة مرة ، تغمر هذا الصوت المتلى العذب فتترك في نفوس السامعين أثراً غريباً . وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مرا سريعاً لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلاً عن أن يسألوا عنها . كانت حياتها في تلك الدار بهجة متصلة ورضا مقيم ، تقطعها بين حين وحين وفي لحظات قصار جداً هذه النخمة التي هم أن تنبئ بالحزن ، ولكنها تذوب قبل أن تنبئ بما هم أن تنبه إليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها ، عطوفاً على أهلها ، تبرهم كلما سئحت لها الفرصة ، تحسن إليهم كلما أتيح لها الإحسان . وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ الضعيف ، تأجرها على ذلك ، لا بالقروش التي تضعها في يدها ، ولكن بثياب تهديها إليها من ثيابها هي الخليفة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حملة إلى زوجها وبنها ، وبالطرف تطرفها بها في أيام الأعياد وفي أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء . ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وإنما كانت تحرص على أن يكون رفقتها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها مستمرا .

وفي ذات يوم سمعت ربة الدار في فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكي ، وصوت عصا تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ؛ فتخرج من حجرها بسرعة ، ولا يروعاها إلا محبوبة قد ألفت ابنتها على الأرض . وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه باحدى يديها جذبا عنيفا ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التي تتخذ لإدارة الخبز في النار واستخراجها منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خزف قد غيا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسال عنهما الفتاة ، بينما تمنع يدها في جذب الشعر ، وتمعن الأخرى في رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى ! وماذا أسمع ! ثم أسرع إلى محبوبة فردتها عن الفتاة . وانتزعت من يدها العصا ، وإلى الفتاة فأهضمتها وفرفت بينها وبين أمها . ولكن محبوبة أمعت في بكاء متصل فيه شهيق وزفير . ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التي تأخذ أمثالها من النساء حين يمعن في الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشئ من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة إلى نفسها واستتبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكده يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزاراً : سمعت منها أنها وجدت في زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك في أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما في دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتخون من يحسنون إليها وإلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شئ من نعمة ورضا ! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء . من أجل هذه السرقة التي استكشفتها فتر عليهم في الرزق ، فردت هي عن بعض الدور التي كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا لسأل عى مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن . إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع .

قالت ربة الدار وقد كففت عبراتها : على رسلك أيتها المرأة ! فان ابتك لم تسرق هذين الطبقين ، وإنما كافتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما

شئ من طعام ، كدأبى معها دائماً . وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فإنها لم تحمل إلينا أسس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . واتجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحي أن ترفض ما تكلفها سيدها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها تهديه إلى الفقراء إن وجدت في طريقها الفقراء وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد في طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق إن لم تجد في طريقها ناساً ولا كلاباً . ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسمه ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولم تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها في غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما . ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها بأحدى يديها ، وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الأخرى ، وبأخذها الغضب فنصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما أمعنت الفتاة في النجيب أمعنت أمها في الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فأثرت بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق الفتاة وأهلها ، وأوصى امرأتها بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا في حبل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم . »

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجوده عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجوده فيا يشهدون من أمور الناس ولا فيما يقص عليهم من أحاديث الجدات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذي يسحر العيون ويغلب القلوب ويملك الأبواب . وفتيان القرية يسرون في أنفسهم حباً لخديجة وإعجاباً بها وطعماً فيا ، ويعلمون بألسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها . والأمانى تلعب

بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الحاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ، ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام . لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ، عظيم النشاط ، جميل المنظر ، منطلق اللسان ، ولا سياحين يأخذ زينتته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه في ضروب من العث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذي يحى النفوس ، والخوف الذي يميم القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجحد في هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من إصهارها إلى أسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح في صدقه وحبه . وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر ، فهي صادقة بلح في صدقها ، تبتغي الوسائل إلى إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم . وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم في نفس خديجة ، فهي تمتنع على هذا الزواج ، وتلح في الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التي تحياها خادماً على تلك الحياة التي تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأسر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهي تمتنع وتمتنع وتلح في الامتناع ، حتى تثير الريبة في نفس أبيها ؛ فما ينبغي أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد قصرت في ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تقضى بسرهما هذا البشع إلى سيدة خديجة في صوت يقطع البكاء وتغمره الدموع . ولكن سيدة خديجة تردّها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتقاشنها حيناً آخر حتى تحتلس منها الرضا اختلاصاً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان . وفي ذات ليلة كانت محبوبه قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحجير ،

تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وإنما يتردد في حلقها صوت خفى منكر ، إن دل على شئ فأنما يدل على خوفها وهلعها مما ستكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجته . وهى كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجرى في أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد في حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد متطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز محبوبه هزاً عنيفاً وترجرجها زجراً مخيفاً ، وتقول لها في صوت يسمعه الناس : أفيق ! ثوبى إلى نفسك ! ماذا تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتشوب السكينة إلى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملاً وقونها موفورة . وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، وقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكروهة على ذلك إكراهاً . تسمع من كل شئ ولا تقول لمن شيئاً ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلا . وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن ما خطبها وما مصدر هذه الكتابة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تفيض فيه القلوب فرحاً ويشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها هى لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر فى نفسها ، ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا أن تظهر عليه . وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتهن لآخترعن الجواب على تساءلن اختراعاً . وأى شئ أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأينا الفتاة أمس ترف إلى زوجها شاحبة الوجه ممقعة اللون

زائغة البصر، لا تمسك نفسها إلا في جهد، كأنما كانت تساق إلى الموت وهي تنظر إليه . ولقد كانت أسها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان . أليس في كل هذا وفي بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترفع في ظلمة الليل وبين خفقان المصاييح . والضحي يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضاً ، فترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها متضحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضي ولا تذهب بشيء ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضي كما تعودت أن تمضي في أعقاب الأعراس . فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيدا إلى النفوس حبا ، ويزيد موقعها في القلوب حسناً ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافي الممتلئ ، قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألد موقعاً في السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب . وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويعتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يحو آية الليل ، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التي تكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والتي كان صوت خديجة يحضرها في النفوس بما يملؤها من ترقق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون ، وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة . وفي هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن في آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذن الابتسام يغادر غفورهن قليلاً قليلاً ، وأخذت الكتابة تغشى وجوههن شيئاً فشيئاً ، وأخذن الهن يستيقظ في قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتيأن لاحتمال أفعال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل . ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كسفات البال بالأسات

النفوس . وافترقت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفي مكان بعيد من حيث تعود النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة وإلى جانبها بعض الحلى . واتمت خديجة في النهار فلم يظفر بها الباحثون . قالت سيدتها وهي تكفكف دموعاً تريد أن تنسجم ، وثبتت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراهاً على الزواج ، ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دنس . لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وضع الله لأبويها ! فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

له حين